

مقدمة فلسفية في الايمان والاحاد وما بينهما

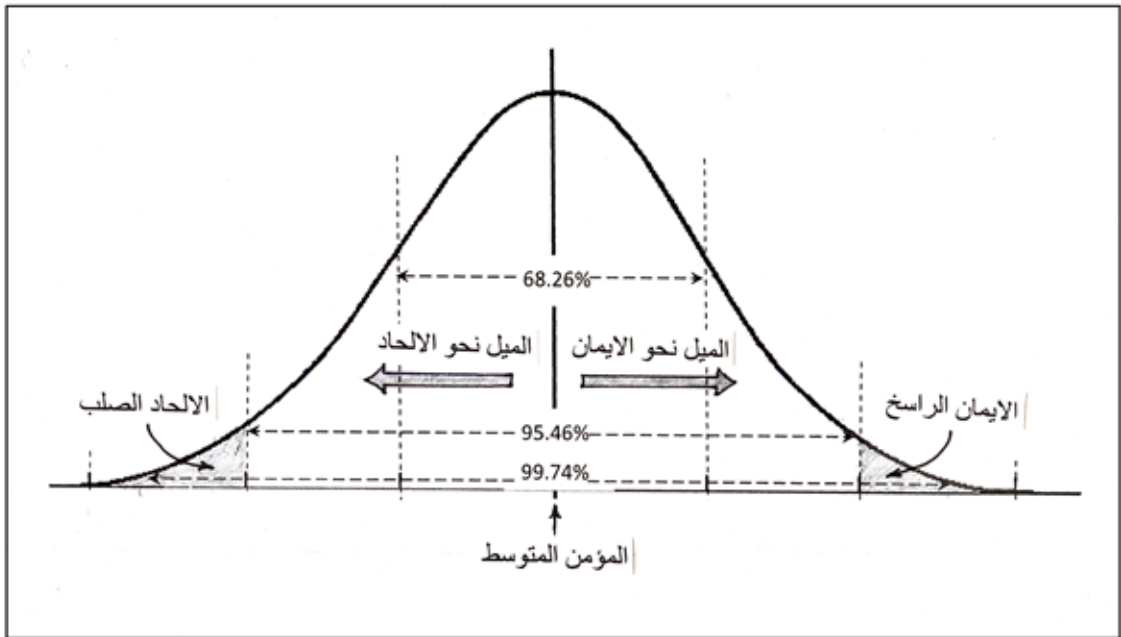
مصدق الحبيب

درجت عموم الاديان السماوية، ومايهما هنا بشكل خاص الدين الاسلامي، على اعتبار الايمان مسألة مسلم بها ولاجدال فيها، وهي عمومية شاملة لا يخرج عن اطرها المفترضة الا الشواذ الندر. وبهذا يفترض في المرء ان يولد ويتربى كمسلم مؤمن ايماناً راسخاً بالله وكتابه ونبيه واليوم الاخر، والكتب والرسائل الاخرى وكل مايتصل بها من عوالم الغيب والروحانيات وكل الظواهر الميتافيزيقية. وليس هناك اي مجال لمناقشة هذا الحقل الفكري عموماً، او اي حرية لما قد يميل اليه الافراد باي شكل يخالف فكراً ذلك الافتراض، فضلاً عن عدم وجود اي امكانية للانكار وحتى التشكيك بموضوعة الايمان بسبب رفض المجتمع القاطع الذي يؤدي لامحالة الى التعارض الجوهري بين الفرد ودينه وثقافته وتقاليد مجتمعه، والذي قد ينتهي الى الحكم على ذلك الفرد بالموت.

ولاشك فان المسألة، بالمنطق العلمي المعقول، ليست بهذه الحدية وهذا التطرف، ولو شاء لنا ان نزيل خطر العقاب الدنيوي الذي تفرضه المؤسسة الدينية على كل من يتجرأ على التصريح بالاحاد أو التشكيك بوجود الله وحتى طرح المسألة للمناقشة لوجدنا ان الغالبية العظمى من الناس ستقع في حقل عدم القدرة على البت بهذا الامر او ذلك، ولربما سيعلن الكثير الاعتراف بعدم اهمية الجدل وعدم جدواه في خضم حياة الانسان المعاصر التي تهيمن عليها اولويات حاسمة اخرى. ومن هنا فلا بد لنا من فهم واستيعاب المذاهب الفلسفية التي وضعت نفسها بين الجهتين المتطرفتين، جهة الايمان المطلق الذي لاشك فيه، وجهة الاحاد المطلق الذي لا غبار عليه. يتخذ هذا الامر شأناً اكبر اذا عرفنا الحقيقة الاحصائية الثابتة للتوزيع الطبيعي للظواهر الطبيعية والاجتماعية التي تشير الى ان واقع هذين الجهتين المتطرفتين لا يتعدى في افضل الظروف ان يتجاوز نسبة ال 3% لكل منهما من عموم الاراء اذاما اجري الاستفتاء وضمنت الحرية المطلقة للروح بما في الدواخل دون خوف او تردد. فاذا افترضنا ان مسألة الايمان تخضع الى التوزيع الطبيعي، سيمكن لنا ان نلاحظ في الرسم البياني التالي ان موقف المؤمن المتوسط يشكل اعلى النسب في المجتمع، ذلك ان اكثر الناس يميلون الى اتخاذ الموقف المعتدل. تأتي بعد ذلك وبالتناقض نسب الافراد الذين اما يميلون اكثر الى التصديق او يميلون الى التشكيك الى ان تتناقض النسبتين الى ما يقارب 2.27% على طرفي التوزيع للذين اما لديهم الايمان الراسخ الذي لا يتزعزع، او الملحدون ذوي المواقف الصلبة الثابتة في الحادهم. وبهذا فان نسبة 95.46% من السكان تقع بين الطرفين.

يعتبر موقف الاكثوسنتية الفلسفي (او ما يترجم للعربية بالالادرية) من بين اهم المواقف الفلسفية حياداً وعقلانية تجاه اكبر واهم واخطر قضية فلسفية على طول التاريخ الانساني وهي قضية الايمان

بوجود الله او الالحاد به. تستمد الاكثوسية مبررات حيادها وعقلانيتها مقارنة بالمذاهب او المواقف الفلسفية الاخرى في قضية الوجود كالبانثية او مذهب توحيد الوجود الذي لايفرق بين الله والطبيعة او الديزمية (الربوبية) التي تقر بالايمان الله وحده دون الايمان بالاديان السماوية والانبياء، والشكوكية التي تعلن الريبة في كل ماله صلة بالوجود والاديان. والاكثوسية قبل كل شئ ليست موقفا الحاديا انما موقفا صريحا في اعلان عدم المعرفة بسبب غياب الادلة . انها لاتنكر وجود الله والغيبيات والروحانيات انما تلقي بظلال الشك عليها لسبب بسيط يتلخص باعتقادها بان الانسان المعاصر، ومهما بلغ التطور العلمي من مستويات عالية ، يبقى غير قادر على اثبات وجود الله والروح والغيبيات الاخرى بما لايقبل الشك. فهي اذا الفلسفة التي تضع فيصلا واضحا بين الاعتقاد



والمعرفة، بين الحقيقة والتصور، وبين المادي وغير المادي. وهذا موقف مخالف تماما للالحاد الذي يقف على طرف النقيض من الايمان بما لديه من انكار ثابت لوجود الله والاعلان بانه محض خيال.

ولان الحياة لاتتلون فقط بالابيض والاسود او بالنور والظلام انما تمتد عبر طبقات غير متناهية من الالوان والدرجات فان مسألة الايمان بالله والالحاد به هي الاخرى لاتسمح لنا بتقسيم السكان بين مجموعتين صافيتي النية ومسلحة بكل الثوابت. الاستنتاج العقلاني يشير الى ان الناس يتوزعون في ايمانهم او عدمه على درجات متباينة يمكن لنا ان نلاحظ توزيعها التقريبي حسب المصفوفة التالية:

تتكون درجات الايمان والالحاد بموجب اتخاذ كلاً من العاملين في العمودين الاول والثاني، اللذين يشيران الى ان الفرد اما يؤمن أو لا يؤمن بوجود الله، واستقراء تفاعلها مع العوامل الاخرى في

الصفوف الاربعة التي تشير الى مديات الاعتقاد بامكانية او عدم امكانية الاثبات بالبراهين العلمية. وهكذا تقرأ درجات الايمان باندماج اي عامل عمودي مع اي عامل افقي، وكما يلي:

* لنأخذ اولا درجات ايمان مجموعة المؤمنين من خلال تتبع العمود الاول:

- الايمان الراسخ: يضم اولئك الذين يعتقدون بوجود الله ويعتقدون بامكانية اثبات هذا الامر ايضا.

- الايمان الاكُنوستي: يضم المجموعة التي تعتقد بوجود الله رغم اعتقادها بعدم امكانية اثباته.

- الايمان المبدئي: يضم المجموعة التي تؤمن بالله بسبب عجز اي احد عن اثبات عدم وجوده.

- الايمان الاختياري: يضم المجموعة التي تعتقد ان من الممكن اثبات عدم وجود الله لكنها تؤمن به على اية حال.

* ولو اخذنا اولئك الذين يشككون بوجود الله من خلال متابعة اتحاد العمود الثاني مع امكانات الاثبات في الصفوف الاربعة فاننا سنلاحظ مديات التشكيك على الشكل التالي:

- الالحاد المبدئي الذي يضم اولئك الذين لا يؤمنون بوجود الله حتى لو اثبت امر وجوده.

- الالحاد القاطع الجازم الذي يضم المجموعة التي لاتؤمن بالله ولا تعتقد ان هناك اي امكانية لاثبات وجوده.

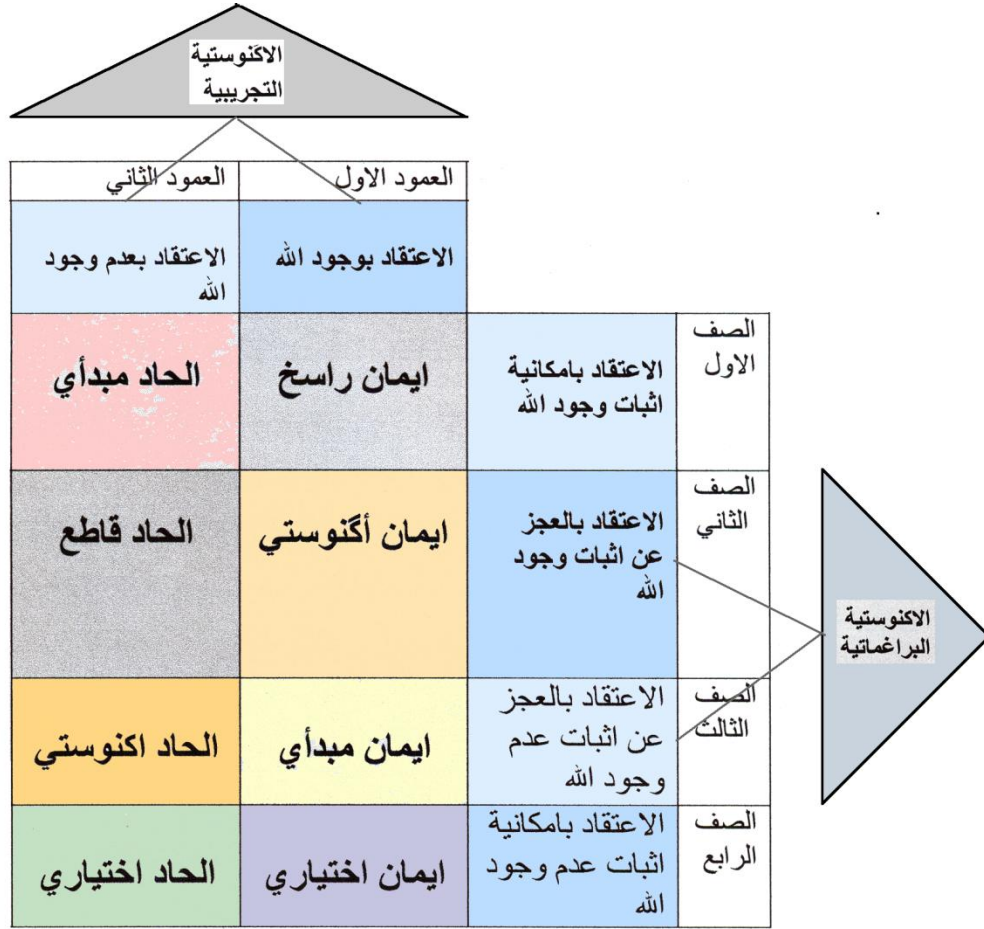
- الالحاد الاكُنوستي الذي يضم اولئك الذين يعتقدون بعجز الانسان عن اثبات عدم وجود الله لكنهم لا يؤمنون بوجوده.

- الالحاد الاختياري الذي يضم الذين لا يؤمنون بالله بغض النظر عن احتمال توفر امكانية اثبات عدم وجوده.

هناك مجموعة اخرى تفضل عدم الخوض في جدال الوجود والتركيز على عدم امكانية اثبات الوجود او عدمه، وتستنتج بان النقاش في مجال ايجاد البراهين اهم من النقاش في مسألة الايمان والالحاد، وله الاولوية عليها، وهذا الاتجاه هو ما يسمى بالاكُنوسية البراغماتية الذي ينشأ في المخطط المصفوفي من اتحاد الصف الثاني بالثالث ويهمل اعتبار العمودين. وبعكس هذا التزاوج فان التركيز على العمودين والانشغال في الجدال العقيم بين الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون دون تمكن اي من الطرفين ان يثبت اعتقاده للاخر بما لا يقبل الشك سيؤدي الى طريق مسدود او ملغوم مما يوجب وضع قضية وجود الله جانبا لحين الوصول الى اثباتها او تفنيدها، وهذا الاتجاه هو ما يسمى بالاكُنوسية التجريبية.

استنادا لما جاء في مناقشة الفيلسوف سورن كيرككارد في كتابه "شظايا فلسفية" المنشور عام 1844 يمكننا استنتاج عدم جدوى الجدال في وجود او عدم وجود الخالق من خلال استقراء الاحتمالات الاربعة التالية:

- اذا كان الله موجودا، فاثبات وجوده يعد عمل احمق وسخيف ولا حاجة له.
- اذا كان الله موجودا، فاثبات عدم وجوده لايرقى الا ان يكون مغالطة فاضحة.
- اذا كان الله غير موجود، فاثبات عدم وجوده يعد ضرب من المستحيل.



- اذا كان الله غير موجود، فاثبات وجوده سيكون عملا غير شريف ولا اخلاقي.

أصل الاكنوسية:

من الناحية الايتمولوجية يتكون مصطلح الاكنوسية (Agnosticism) من مقطعين لاتينيين :
 الـ (a) التي تفيد النفي، وتلحقها (gnosis) التي تعني "المعرفة" ليكون معنى الكلمة "اللامعرفة". ورغم ان فكرة الاكنوسية تعود بجذورها الى الفلسفة الاغريقية خاصة في آثار

بروتانغورس وبايرو وكارنيدس، كما ترتبط كمفهوم عام بالنصوص السنسكريتية في الشرق، فان اول من وضعها كأتجاه فلسفي هو عالم الاحياء والفيلسوف الانكليزي توماس هنري هكسلي عام 1869 بتأكيده على ان الظواهر لا تقبل التصديق الاستنتاجي الا اذا كانت مثبتة عمليا او قابلة للاثبات العلمي، وماعدا ذلك يقع ضمن مجال ما سماه بـ "الاكنوستية". علما ان نقاش هكسلي لم يكن اول الامر متعلقا بوجود الله انما كان ضمن نطاق دفاعه المتحمس ودعوته لاتباع الطريقة العلمية التشكيكية في حقيقة الظواهر لحين اثباتها او دحضها بالادلة والبراهين المادية. وقد اكد هكسلي بان الاكنوستية ليست مذهبا او عقيدة وليس لها اي هدف في معارضة الدين انما هي طريقة للاعتقاد تقوم على ضرورة الاثبات من اجل التصديق. على ان هكسلي كان قد تحدث لاحقا عن ان الاكنوستية تتبنى موقفا "لاادريا" في حالات عدم توفر الادلة والبراهين لاثبات ظاهرة ما، وكان يعني في هذه المناسبة ان من الافضل التصريح بعدم المعرفة نقيضا لما كانت الكنيسة الكاثوليكية تدعي معرفة تفاصيله بكل تأكيد كمسألة الله والوجود والجنة والنار والحياة الاخرى.

أما روبرت إنكرسول، المحامي اللامع والسياسي الامريكي الذي سمي بـ "الاكنوستي الكبير" فقد عرف موقفه من الاكنوستية في محاضراته الشهيرة التي القاها عام 1896 وكانت بعنوان "انا اكنوستي، فلماذا؟" والتي اعتبرت من المصادر الاصلية لتعريف معنى الاكنوستية. لقد سأل إنكرسول نفسه خلال المحاضرة : هل هناك من يعلو على كل شئ ويبيده الامر والملك ؟ فأجاب بصدق بانه لايعلم وليس لديه المعرفة الكافية بذلك كما انه لايدعي القدرة على انكار الامر او تكذيبه . ولكن مايهمه اكثر هو مالمديه من ايمان واضح، وهو انه مهما تكن حقيقة الامر اعلاه فلايستطيع الدين ولانقوى العقيدة على تغييره، ولايغيره الخوف او الامل او التمني. واكد بان من الحكمة ان يكون المرء صادقا مع نفسه ويعترف بجهله في هذا الامر، وخير للجميع ان يسلمون بعدم القدرة على اثبات الامر او اثبات عكسه.

وكان في وقت سابق لذلك بكثير فيلسوف التنوير الاسكتلندي ديفد هيوم الذي اشار الى ان كل مايتعلق بالكون وظواهره لا بد ان يكون مشوبا بالشك حتى عند العلماء المختصين الذين لهم القدرة على الاتيان بنظرياتهم الشخصية حول هذه الظاهرة وتلك. ومن هنا تأتي اهمية الطرح والصياغة اللغوية في وصف الاحداث والاقوال عموما والتي تقتضي الاشارة جهد الامكان الى ان مايتكلم حوله العالم انما حسب اعتقاده المدعوم ببعض البراهين لكنه لايرقى باي حال من الاحوال الى ان يكون الحقيقة المطلقة الا اللهم اذا كان الكلام عن الظواهر التي لاجدال فيها كشروق الشمس وغروبها. لا بد ان يأخذنا هذا المنعطف الى مااعتدنا عليه من صياغات غير دقيقة في طرح الامور خلال النقاشات وفي المقالات والتقارير وحتى في الاطروحات والبحوث العلمية التي يكتبها المختصون. وما يميز عدم دقة الطرح هو وضع التصريحات ووصف الاحداث وكأنها الحقائق المطلقة. والحال هو ان من الحكمة ومن الواجب ان يصاغ الاسلوب بطريقة لاتشير بان مانقول ونكتب هو الحقيقة المطلقة حتى لو كان التحدث عن ظواهر واحداث معروفة وشائعة بحيث جعلها الزمن تبدو وكأنها الحقائق المطلقة، ولناخذ مثلا على ذلك:

الشائع لنا ان نقول، على سبيل المثال، العبارة التالية: "ان ملك العراق غازي بن فيصل قد وافاه الاجل اثر حادث مؤسف عندما اصطدمت السيارة التي كان يقودها باحد اعمدة الكهرباء". والاكثر دقة وحيادا وأمانة وانصافا ان نسبق هذه العبارة بما يبعدها عن كونها الحقيقة المطلقة بل يضعها في نصابها الواقعي كأن نقول " تشير الوقائع المتوفرة لدينا لحد الان الى ان ملك العراق ...الى آخر القول . أو نقول "استنادا الى اطلاع الكاتب على ماتوفر من صور وتصريحات لشهود العيان وتتابع الاحداث يبدو ان ملك العراق الى آخر القول.

ولرب سائل يسأل: اليس الصور الفوتوغرافية وشهود العيان ادلة ثابتة دامغة عن الحدث؟ الجواب هو انه طالما هناك مجال للشك، حتى لو كان ضئيل جدا، كأن يكمن في امكانية تحوير الصور او تغيير الوقائع والمبالغة والتهويل في افادات شهود العيان، فان الحدث لايمكن ان يعتبر الحقيقة النهائية، انما حقيقة مشروطة بما توفر من ادلة وقتذاك.

أما برتراند رسل، الفيلسوف الانكليزي الذي عاش قرابة قرن من الزمن وقدم مساهمات فذة في الفلسفة والرياضيات والمنطق ، فقد اباح بموقفه الاكنوستي عام 1927 عند نشر الكراس الشهير بعنوان "لماذا لااعتبر نفسي مسيحيا" الذي نسف فيه وتحدى التعاليم والتقاليد المسيحية فيما يتعلق بمسألة الوجود ودعا فيه القراء الى الصدق مع انفسهم في الاجابة على سؤال الوجود بحرية كاملة فكتب: "قف على قدميك بجرأة وتأمل العالم الذي من حولك بحيادية وانصاف وبذكاء متحرر ودون تردد او خوف". اما في عام 1939 فقد ذهب ابعد من ذلك حين القى محاضرة بعنوان "انا ملحد" التي قال فيها ان سؤال الوجود الازلي يأتي عادة بشقين: هل ان الله موجود؟ ومن هو؟ ولكن اذا كان الجواب بالنفي على الشق الاول فانه سيلغي تلقائيا الحاجة الى الشق الثاني فضلا عن الغاء الاجابة عليه. لكن رسل اوضح الفرق الفني بين مفهومي الاكنوستي والملحد عام 1947 عندما قال ان الاول يناسب المنطق الفلسفي ويصلح اكثر للجمهور الذي يعي الفلسفة اما الثاني فانه يناسب منطق الشارع ويصلح استخدامه لعوام الناس. وقد يختلف الكثير من المفكرين مع رسل في هذا التفريق الذي سيكتسب حساسية عالية في ثقافات اخرى حيث ان مفهوم الاكنوستية يتضمن مجرد التشكيك والاعتراف بعدم وجود المعرفة الكافية للاجابة على سؤال الوجود، اما الالحاد فيفيد النكران الايجابي التطوعي لوجود الله وهو بهذا اثقل بالخطايا في اوساط التقاليد الدينية من المفهوم الاول.

رهان باسكال:

قبل قرنين مما جاء به هكسلي حول الاكنوستية انشغل الفلاسفة والمفكرين باطروحة باسكال، الفيلسوف وعالم الرياضيات والفيزياء الفرنسي، حول جدال الوجود والتي سميت برهان باسكال. لقد صاغ باسكال خلاصة الجدل بين المؤمنين والملحدون والمشككين في ماصبح فيما بعد البذرة الاولى لنظرية القرار والاساس الاولي لنظرية الاحتمال الرياضية-الاحصائية. ويتلخص رهان باسكال بترتيب احتمالات نتائج الجدل والوصول الى افضل استنتاج في ظل التسليم بان كلا من الطرفين عاجز عن اثبات اطروحته بالادلة والبراهين، وان ماتبقى هو الازعان الى النتيجة المنطقية التي سيفضي اليها الجدل حين يتشبث الطرفان بمواقفهما دون القدرة على دعمهما.

المصفوفة التالية تلخص المعنى العام لرهان باسكال:

* اذا كان الفرد يجادل لصالح وجود الله فانه يضع نفسه في نهاية المطاف امام احتمالين، لاغير:

1. ان صح الاعتقاد وظهر ان الله موجود فعلا، فسينال هذا الموقف سعادة الدنيا وجنة الآخرة (حقل رقم 1 في المصفوفة).

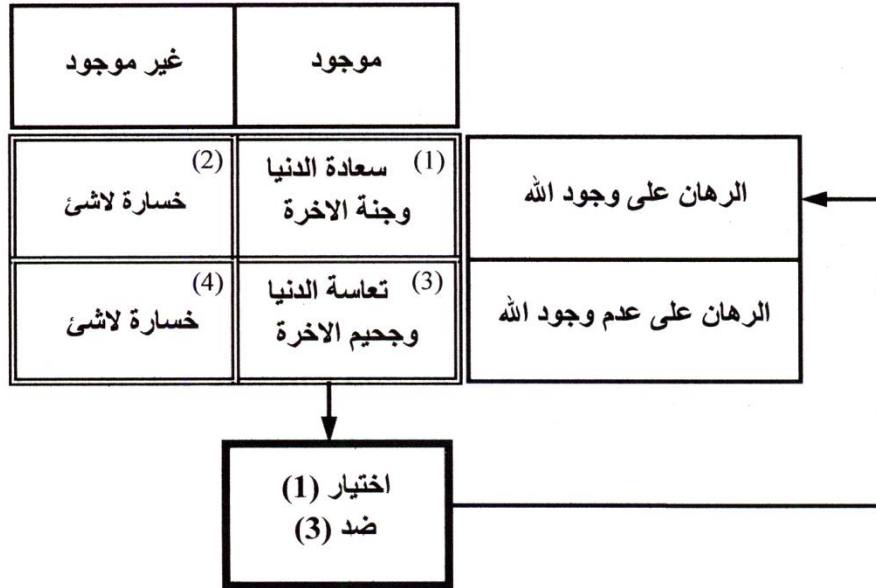
2. وان ظهر بان الله غير موجود، فلن يخسر هذا المرء اي شئ على الاطلاق (حقل رقم 2).

* اذا كان الفرد يجادل لصالح عدم وجود الله، فانه سيضع نفسه امام الاحتمالين التاليين:

3. ان صح الاعتقاد وظهر ان الله موجود فعلا، فسيكون ذلك موقف الكفر والخطيئة والاحاد ولاينال الفرد به سوى تعاسة الدنيا وجحيم الآخرة (حقل رقم 3).

4. وان ظهر بان الله غير موجود، فلن يخسر المرء اي شئ (حقل رقم 4).

فإذاً، وباتباع المنطق العقلاني في مقارنة الاحتمالات الاربعة ، سيكون الخيار قائم على مقارنة الاحتمال الاول مع الاحتمال الثالث، الامر الذي يؤول الى ان الاحتمال الافضل هو رقم (1)، وبهذا فمن الحكمة ان يكون الانسان مؤمنا باي حال من الاحوال.



بعض المصادر

Antony, F (2011) Agnosticism. Encyclopedia Britannica.

- Dixon, T. (2008). Science and Religion, Oxford University Press.
The Free Online Dictionary
The Internet Encyclopedia of Philosophy
The Internet Wikipedia
- Rowe, W.L. (1998). Agnosticism. Routledge Encyclopedia of
Philosophy
- Sofroniou, A (2012). Huxley's Nonreligious Agnosticism.
Encyclopedia Britannica.